الفصل التمهيدي:

مفهوم الفكر المقاصدي ومدرسة المنار

أولاً: مفهوم الفكر المقاصدي

١- مفهوم الفكر:

قال الجوهري: الفِكر والفِكرة اسم من التفكر؛ أي التأمل[١] والمصدر الفَكر. وهو إعمال الخاطر في الشيء، والفكر في الشيء: تقديره وقياسه، وهو ما يطلق عليه النظر،[٢] ويقابل الحدس الذي هو سرعة انتقال الذهن من المبادئ إلى المطالب.[٣]

وعلاقة الفكر بالاجتهاد أن الفكر يوصف بالاجتهاد حين يتبعه صاحبه ببذل الطاقة في إعماله. والاستعمال القرآني للفكر يراه رشيد رضا أكثر ما يرد في آيات الله، ودلائل وجوده، ووحدانيته، وحكمته، ورحمته.[٤]

٢- مفهوم المقاصد:

المقاصد جمع مقصد أو مقصود،[٥] وهما من القصد، من فعل: قصَدَ يقْصِدُ قَصْداً، وقد وردت له معان مختلفة في لغة العرب،[٦] لعل الأقرب منها إلى المعنى الاصطلاحي الأم.

---

(١) الرازي، محمد بن أبي بكر بن عبد القادر. **مختار الصحاح**، تحقيق: محمود خاطر، بيروت: مكتبة لبنان ناشرون، (١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م)، مادة: [فكر].

(٢) ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم. **لسان العرب**، بيروت: دار الفكر، (١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م)، مادة [فكر].

(٣) الجرجاني، علي بن محمد بن علي الحسيني. **التعريفات**، بيروت: دار الكتب العلمية، ط١، ١٩٨٣م، ج١، ص٨٣.

(٤) رضا، **تفسير المنار**، مرجع سابق، ج٩، ص٤٦٠ - ٤٦١.

(٥) وجاز إسقاط الياء المقلوبة عن الواو في جمعه على مقاصد، وله أمثلة: كمطالب ومكاتب جمع مطلوب ومكتوب.

(٦) منها: خلاف الإفراط، الكسر، الاستقامة، العدل، الأم.

ومصطلح المقاصد[١] لم يضبطه العلماء، بقدر احتفائهم، واهتمامهم بالموضوع ذاته،[٢] ويتجلى هذا في إطلاقه على صيانة الأركان الخمسة الضرورية، وهي: الدين، والنفس، والعقل، والنسل، والمال، وما دونها، أو تعبيرات مماثلة، مثل حفظ الشارع على الخلق دينهم، وأنفسهم، وعقولهم، ونسلهم، وأموالهم.

وأول تعريف حدي للمصطلح نجده عند محمد الطاهر ابن عاشور، وعلال الفاسي، قال الأول: "مقاصد التشريع العامة هي المعاني والحكم الملحوظة للشارع في جميع أحوال التشريع أو معظمها، بحيث لا تختص ملاحظتها بالكون في نوع خاص من أحكام الشريعة."[٣] وفي تعريف مختصر للمقصد العام من التشريع قال: "هو حفظ نظام الأمة، واستدامة صلاحه بصلاح المهيمن عليه، وهو نوع الإنسان،"[٤] وقال الثاني موجزاً ومدققاً أكثر: "المراد بمقاصد الشريعة الغاية منها، والأسرار التي وضعها الشارع عند كل حكم من أحكامها."[٥]

---

(١) تعرف في الاصطلاح بصيغة الجمع، لكثرة استعمالها بهذه الصيغة الدالة على أن للشريعة عدة مقاصد، لا مقصداً واحداً.

(٢) لدرجة جعلت أحمد الريسوني يقر -بحسب اطلاعه طبعاً- أن لا وجود لتعريف للمقاصد إلا مع المرحومين محمد الطاهر ابن عاشور وعلال الفاسي، ولم يوافقه في هذا عبد السلام الرفعي الذي ذكر جملة من التعريفات لابن القيم، بل وللشاطبي نفسه، موضوع بحث الريسوني غير أن ما استشهد به لا يرقى إلى التعريف الحدي الذي يقصده الريسوني. انظر:

- الريسوني، أحمد. **نظرية المقاصد عند الإمام الشاطبي**، هرندن: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط١، ١٩٩١م، ص ٥.

- الرفعي، عبد السلام. **فقه المقاصد وأثره في الفكر النوازلي**، الدار البيضاء: أفريقيا الشرق، ٢٠٠٤م، ص٢٥.

(٣) ابن عاشور، محمد الطاهر. **مقاصد الشريعة الإسلامية**، تونس: المطبعة الفنية، (١٣٦٦هـ/ ١٩٤٥م)، ص٥٠.

(٤) المرجع السابق، ص٦٣.

(٥) الفاسي، علال. **مقاصد الشريعة الإسلامية ومكارمها**، الدار البيضاء: مكتبة الوحدة العربية، (د. ت.)، ص٣.

٣- الفكر المقاصدي:

أما الفكر المقاصدي[١] بوصفه مركباً؛ فيعنى به تجاوز المعنى الظاهري للكلام، سواء في ألفاظه أو في سياقه العام، ورصد وتتبع كل المعاني التي سيق من أجلها وروعيت في مضامينه إخباراً أو إنشاءً، وقد عرَّفه أحمد الريسوني بأنه "الفكر المتبصر بالمقاصد المعتمد على قواعدها، المستثمر لفوائدها."[٢]

ويرى بعض الباحثين أن مصطلحات "علم المقاصد"، و"الاجتهاد المقاصدي"، و"الفكر المقاصدي" تتفق في مغزاها ومرماها،[٣] غير أن من تأمل تعريفات العلماء لمقاصد الشريعة لا يخفى عليه ما تعبر عنه من فهم دقيق، وفكر عميق لخطاب الشرع، فإذا كانت مقاصد الشريعة، تهتم بالأحكام الشرعية الكلية المقيمة والحامية لضروريات الإنسان وحاجياته وتحسيناته، مع بيان ترتيبها الداخلي والخارجي، اعتماداً على طرائق كشف معتبرة، فإن الفكر المقاصدي يوسع مجال الاهتمام ويمده خارج الأحكام الفقهية، ويتحرك ليبتكر الوسائل المعقولة والمشروعة، للوصول إلى مقاصد الشرع العامة، بناء على معطيات ونتائج حقول معرفية مختلفة.

ومن جهة ثانية نجد أدوات الاجتهاد، وأساليبه لفهم نص خطاب الشرع تتعدد، بدءاً ببنيته اللغوية، الإفرادية والتركيبية، مروراً بسياقه وسباقه، وصولاً إلى امتداداته ونسقه، إلا أن ما يميِّز الاجتهاد المؤسس على هذه الآليات، ومنه الاجتهاد المقاصدي، كونه يدور مع الحكم الفقهي الشرعي. بينما الفكر المقاصدي -مطلقاً

---

(١) الأصل في النسبة إذا كانت لجمع باق على جمعيته أن يجاء بواحده وينسب إليه، كقولنا: "فرضي" في النسب إلى الفرائض.، هذا إن لم يكن جارياً مجرى العلم، فإن جرى مجراه -كأنصار- نسب إليه على لفظه، فتقول في أنصار "أنصاري"، وكذا إن كان علماً، فتقول في أنمار "أنماري". انظر:

- ابن عقيل، عبد الله بن عبد الرحمن العقيلي الهمداني. **شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك**، بيروت: دار الفكر، ط٦، ١٩٧٤م، ج٤، ص١٦٧.

(٢) الريسوني، أحمد. **الفكر المقاصدي: قواعده وفوائده**، الدار البيضاء: مطبعة النجاح، ١٩٩٩م، ص٣٥.

(٣) ابن عبد الكريم، أبو الفضل عبد السلام بن محمد. **التجديد والمجددون في أصول الفقه**، القاهرة: المكتبة الإسلامية، ط٣، ٢٠٠٧م، ص ٤٧٩.

هكذا- يمتد؛ ليؤطر ويوجه الفكر البشري كلية، مما يجعله أقدر من غيره على مد الجسور بين علوم الشريعة، بمفهومها الضيق،[1] والعلوم الأخرى، كعلم النفس، والاجتماع، والاقتصاد، والتاريخ، والفلك، وحتى الطب والطبيعة، ويستفيد من معطياتها لمعالجة مشكلات الإنسان في الحضارة المعاصرة التي تتداخل فيها شتى العلوم والفنون والآداب...

٤- هوية المقاصد:

تعددت الآراء في هوية المقاصد، هل هي مجرد مبحث أصولي، يحتاج إلى معرفة دقائقه، والوصول إلى أعماقه، أم هي الوجه المتعالي لفلسفة التشريع، أم علم مستقل غفل عنه القدماء، أم أن مبحث المقاصد في ظهوره الجديد يمثل أصول أصول الفقه، يؤثر في ترتيب المصادر، ويحكم خطى الاستنباط، ويدخل في منطقة تنزيل الأحكام مقدمات ونتائج، أم هي أبعد من هذا؟ فهي علم الأخلاق الإسلامية، ويكاد يرادف قيم الشريعة، كما هي نظرة طه عبد الرحمن، أم هي علم للمنهج يضبط العقل الإسلامي...؟[2]

٥- أقسام المقاصد:

ما إن نشأ الاهتمام بالمقاصد حتى برزت مصطلحات وأقسام، تبرز مدى وضوح ملامحها ومباحثها وموضوعاتها، وهي التي تكوّن الهيكل العام لما يسمى الآن علم المقاصد. ومن نتائج تزايد اهتمام العلماء بمقاصد الشريعة تشعُّب محاورها ومباحثها، وكثرة أقسامها وأنواعها، مما أغنى مباحث هذا العلم وقواعده، ويسر سبل استيعاب مضامينه، والتمكن من ناصية منهجه، فهي تنقسم إلى أقسام عدة بحسب مسوّغات مختلفة:[3]

---

(١) وإلا فكل علم يقرب إلى الله، وييسر العمل لنيل رضاه فهو مطلوب شرعاً، ويعد من الشريعة.

(٢) إمام، محمد كمال الدين. "نظرة في المقاصد الشرعية"، **مجلة المسلم المعاصر**، العدد (١٠٣)، شتاء ٢٠٠٢م، ص٥ -٧.

(٣) وهي اجتهادية غير متفق عليها، وهي في نفس الوقت متداخلة، كما أسلفت، فهو تقسيم دائري حلقي.

فبوصف محل صدورها ومنشئها، هي: إما مقاصد الشارع، أو مقاصد المكلف.[1] وبوصف تعلقها بعموم التشريع وخصوصه، هي ثلاثة أقسام: مقاصد عامة، ومقاصد خاصة، ومقاصد جزئية. وبوصف تعلقها بعموم الأمة وأفرادها هي ثلاثة أقسام: كلية، وأغلبية، وخاصة، أو فردية. وبوصف مدى الحاجة إليها تنقسم إلى ثلاثة أقسام: ضرورية، وحاجية، وتحسينية. وبوصف أصليتها وتبعيتها: هي مقاصد أصلية أومقاصد تبعية. وبوصف حظ المكلف: هي قسمان أيضاً، قسم لا حظَّ للمكلف فيها، وهي أصلية، وقسم روعي فيها حظُّ المكلف، وهي: تبعية. وبوصف القطع والظن، هي ثلاثة أنواع: قطعية، وظنية، ووهمية، وبوصف زمن حصولها: هي قسمان: دنيوية وأخروية، أو عاجلة وآجلة، والآجلة، منها الدنيوية، ومنها الأخروية.

٦- فوائد الفكر المقاصدي:

من فوائد وثمار المنحى المقاصدي، والنظر المقاصدي في الفقه خاصة:

- اعتبار علل الأحكام ومقاصدها، وذلك عند إجرائها، وتنزيلها عند تحديد الوجوه، والفروع التي تشملها، والتي لا تشملها.
- العصمة من الزيغ والخطأ، أو على الأقل تقليل هامشهما، بالنسبة للمجتهد الذي لا تحصل له هذه الدرجة إلا بفهم مقاصد الشريعة على كمالها، والتمكن من الاستنباط بناء على فهمه لها، وذلك كما قرر شيخ المقاصد الشاطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ.[2]
- ترتيب الأولويات، حتى لا يشتغل بالمهم على حساب الأهم، وبالوسائل على حساب الأهداف، وبالفروع على حساب الأصول، وبالجزئيات على

---

(١) البدري، يوسف أحمد محمد. **مقاصد الشريعة عند ابن تيمية**، عمان: دار النفائس، ٢٠٠٠م، ص١٢٣.

(٢) الشاطبي، أبو إسحاق إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي. **الموافقات في أصول الشريعة**، تحقيق: محمد عبد الله دراز، بيروت: دار المعرفة، (د. ت.)، ج٤، ص١٠٥.

obeikandl.com

حساب الكليات، وبالشكل على حساب المضمون... مما يضيق زاوية النظرة، ويفوت المصالح، ويضيع الفرص. وبترتيب الأولويات يستجاب للإشكاليات المعاصرة والتحديات الجديدة.

ثانياً: مدرسة المنار

لا يمكن الحديث عن تفسير المنار دون الوقوف على المدرسة التي أنتجته وارتبط بها اسمه، وتربى فيها صاحبه، وحمل لواءها ومشعلها، ونشر فكرها وقيمها شرقاً وغرباً. فالمنار التفسير هو المنار المدرسة،[1] وهو في الحقيقة ليس لرجل واحد فكر وأسلوب، بل فيه بصمات شيوخ ثلاثة: السيد جمال الدين الأفغاني، والإمام محمد عبده، والسيد رشيد رضا.[2]

١- ظروف نشأة المدرسة واتجاهها الفكري:

أ- التعريف بمدرسة المنار:

تعدّ المنار مدرسة فكرية إصلاحية، إسلامية التوجه، سلفية الأصول، عقلانية الفكر، عصرية الرؤى، ألمت بفقه الشرع وخبرت الواقع، وحاولت تنزيل شرع الله على واقع الناس في زمن عرف تحولات كبرى في ميادين مختلفة، خلال نهاية القرن التاسع عشر، والثلث الأول من القرن العشرين. فإذا راعينا فيها الفكر والتوجه، فإن تأسيسها يعود إلى السيد جمال الدين الأفغاني، قبل أن يتم محمد عبده، ورشيد رضا بناءه،[3] أما إذا راعينا فيها المقر والبنيان؛ فإنه يمكن اعتبار "دار الدعوة

---

(١) على حد تعبير الشاهد البوشيخي. انظر:

- البوشيخي، الشاهد. "في تجديد الفهم للمصطلح القرآني"، **مجلة رسالة القرآن**، العدد (١)، محرم - صفر - ربيع الأول - ١٤٢٥هـ، ص٧٧.

(٢) وسأعبر عن هؤلاء بالأفغاني، والأستاذ الإمام، والشيخ بهذا الترتيب، وذلك للاختصار عند الإطلاق، وإلا فعند التقييد يزول اللبس.

(٣) ورأى بعض الباحثين أن رشيد رضا هو الذي كون هذه المدرسة. انظر:

- السلمان، محمد بن عبد الله. **رشيد رضا ودعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب**، الكويت: مكتبة المعلا، ١٩٨٨م، ص٥٤١.

والإرشاد" التي أنشأها السيد رشيد بمصر سنة ١٩١٢م المؤسسة التي صاغت هذا الفكر، وترجمته عبر علوم تلقن لطلبته.

والمنار مصطلح اختاره السيد رشيد رضا أول ما اختاره، ليكون عنوان مجلته التي أصدرها يوم ٢٢ شوال ١٣١٥هـ الموافق ١٥ من مارس ١٨٩٨م، وقد أخذه من قول الرسول ﷺ: "إن للإسلام ضوءاً ومناراً كمنار الطريق"، وعزاه إلى الجامع الصغير للسيوطي.[١] وقال: "وإننا اقتبسنا اسم المنار من الحديث الشريف تفاؤلا بأن يكون مبيناً لضوء الإسلام، وناصباً لأعلامه، وموضعا لنور الحقيقة التي نحتاج إليها في حياتنا العلمية والاجتماعية."[٢]

ب- ظروف نشأتها:

على الرغم من النهضة العلمية والأدبية التي عرفها العالم العربي أواخر القرن التاسع عشر، وبداية القرن العشرين، والتي من مظاهرها انتشار التعليم في المدارس والمعاهد، إلا أنه في المجال الديني سادت نزعة الجمود والتقليد، وفي ظله ظهرت حركات هدامة كالقاديانية، والبابية، والبهائية، وانتعش الاستشراق،[٣] مما جعل الأرضية الإسلامية معرضة للتلوث الفكري، والتشوّه العقدي، الأمر الذي اضطر معه بعض المفكرين إلى التصدي لهذا الوباء، وأذكر ممن أبلى منهم البلاء الحسن محمد

---

(١) من حديث أبي هريرة، والحديث أخرجه الحاكم في المستدرك وقال: حديث صحيح على شرط البخاري ورواه غيره، ما بين موقوف ومرفوع، وعند البعض "وعلامات" بدل "وضوءاً". انظر:

- النيسابوري، أبو عبد الله محمد بن عبد الله الحاكم. **المستدرك على الصحيحين**، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، بيروت: دار الكتب العلمية، ط١، (١٤١١هـ/ ١٩٩٠م)، ج١، ص٧٠.

(٢) رضا، محمد رشيد. **فتاوى الإمام رشيد رضا**، جمع وتحقيق: صلاح الدين المنجد ويوسف قزما خوري، بيروت: دار الكتاب العربي، ١٩٧٠م، ج٢، ص٦٣٢.

(٣) الذي استهدفت أطروحات أصحابه طمس الحقائق القرآنية، وربط تخلف المسلمين باتباع تشريعاته وأحكامه، كالامتناع عن الربا، ومن وسائل التوفير والضمان، والمنع من التجديد في الشرائع والمعاملات بصفة عامة، وإعاقة التقدم الاقتصادي وازدهار العمران، كل ذلك لتجريد المسلم من ثقته بنفسه، ليتجه نحو الغرب ينشد في تقليده المثال والأنموذج المحتذى. انظر:

- الفاسي، علال. "محمد عبده"، **مجلة دعوة الحق**، العدد (٩)، ١٩٥٨م، ص١.

إقبال، وجمال الدين الأفغاني، ومحمد عبده، ورشيد رضا، والمودودي، وآخرين.

ونتيجة لاصطدام الحضارتين الإسلامية والغربية، بسبب الاستعمار نشأت أزمة فكرية في العالم العربي والإسلامي، وظهر انقسام حاد بين النخب المثقفة حول الهوية؛ أهي إسلامية أم غربية أم ماضوية تراثية، أم ماضوية ومعاصرة، أم حداثية قاطعة للصلة بكل موروث؟ فظهر تيار التقليد والمحاكاة للسلف، وتيار التقليد والمحاكاة للغرب، وتيار التوفيق بين الاثنين.

ت- اتجاهها الفكري:

في هذا الخضم، إذن، ظهر تيار الإحياء والتجديد الذي حاول التوفيق بين التيارين السابقين، تيار التقليد للموروث وتيار التقليد للوافد الغربي، يستفيد من الأول فضل الحفاظ على التراث وفضيلة الدفاع عنه أمام الوافد الغربي الذي يهدده بالاجتثاث، والامتناع عن الاستلاب الحضاري، مما يضمن للأمة التواصل مع ماضيها، ويستفيد من الثاني أهمية الانفتاح على الحضارات الأخرى خصوصاً الحضارة الغربية، وقد تزعَّم هذا التيار قادةٌ كبار،[1] وكانت منابع هذا التيار متمثلة في:

- مبادئ الإسلام كما هي في أصوله النقية من الكتاب والسنة الصحيحة.
- ثوابت التراث العربي الإسلامي التي حفظت لأجيال الأمة عبر التاريخ هويتها وتواصلها الحضاري، وإحساسها بالوحدة.
- كل ما أبدعه العقل الإنساني في الحضارات الأخرى قائماً على الدليل، وله اتصال بالعلوم الموضوعية المحايدة التي لا تتأثر بتنوع المعتقدات أو الحضارات.

ويُعدُّ الإمام محمد عبده المهندس الأعظم لهذا التيار،[2] وهو الذي حدَّد أهدافه العامة، وعدَّه كثير من العلماء من المجددين المصلحين. وكان لا بد على المدرسة أن

(١) أمثال: رفاعة الطهطاوي، وخير الدين التونسي، وجمال الدين الأفغاني، ومحمد عبده، وعبد الله النديم، وعبد الرحمن الكواكبي، ومحمد رشيد رضا، ومحمد مصطفى المراغي، وحسن البنا، والعقاد، ومحمد الطاهر ابن عاشور، وعلال الفاسي وآخرين.

(٢) عمارة، محمد. **أزمة الفكر الإسلامي الحديث**، بيروت: دار الفكر، ط١، ١٩٩٨م، ص١٠٠.

تواجه هذه البيئة بإثبات قيمة العقل إزاء النص، لإحياء فكرة الاجتهاد، وأن الإسلام ليس كباقي الشرائع، فهو دين العقل والنظر واليقين، فلا يتعارض فيه النص الصحيح مع العقل الصريح. وتبلور فكرالمدرسة، كما سبقت إليه الإشارة، في مشروعات كبرىٰ تربوية، وتعليمية، وثقافية، وإعلامية... ووصل صداها أقصىٰ بقاع العالم الإسلامي.

٢- أقطاب مدرسة المنار، وأبرز إنتاجاتها:

يرتبط اسم المنار غالباً بشخصيتين عظيمتين؛ هما: الإمامان محمد عبده، ورشيد رضا، لكن من الإجحاف بمكان أن تغيب شخصية غذت بفكرها ونضالها فكر المدرسة، ومدته بعناصر القوة والتفرد والانفتاح والنقد، في زمن استولىٰ فيه التقليد علىٰ العقول، وهي شخصية جمال الدين الأفغاني، فهو القطب المؤسس للمنار ووقوده، فله الأفضال العظيمة علىٰ حركات الإصلاح عامة، ومدرسة المنار خاصة.

وقد اشتغل الأئمة الثلاثة بأسئلة من قبيل: كيف استبدل المسلمون سلطانهم خضوعاً، وانطلاقهم خنوعاً، وعرفانهم جموداً، وإيمانهم جحوداً، وشجاعتهم خوفاً، ونشاطهم كسلاً؟ هل السبب في طبيعة الدين كما يزعم أعداؤه، أم في أمر الجنس كما يقول المستعمر، أم القضاء والقدر فلا مرد له؟ وأيقنوا أن لا هذا ولا ذاك، إنما هي نواميس الكون التي قدَّر الله أن يسير عليها، وطبيعة المجتمعات التي لا يمكن الانحراف عنها، إنه الانحراف عن الدين نفسه، ومؤامرات أجنبية لسلخ المسلمين عن هويتهم، وإبعادهم عن مصدر عزهم.[١]

أ- أقطاب المدرسة:

- جمال الدين الأفغاني (١٨٣٨-١٨٩٧م):

كشفت للأفغاني رحلاته إلىٰ دول كثيرة في الشرق والغرب[٢] عن ضعف في

---

(١) شرح الأستاذ الإمام هذا في كتابه الإسلام والنصرانية. انظر:

- عبده، محمد. **الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية**، بيروت: دار الحداثة، ١٩٨٨م، ص١٢١ وما بعدها.

(٢) كالهند، وإيران، والعراق، ومصر، والحجاز، واستانبول، ولندن، وباريس، وميونيخ، وبطرسبرج.=

جانب، وعن قوة في جانب، واستكانة في جانب وتحمس في آخر، مما أتاح له المقارنة بين الإسلام والمسيحية؛ عقيدة وشريعة وممارسة، ووقف على مفارقات في حياة المسلمين وحياة الغربيين.

قاوم الاستعمار وحارب البدع،[1] فبدت حركته سياسية في المظهر، وإسلامية في الجوهر، فالدين أساس أولي وهدف أخير، وهذا من فقه الذرائع في فكر الإمام.

ويُعدُّ أول مفكر وسياسيٍّ مسلم يطوِّر مشروعاً متماسكاً لفكرة الجامعة الإسلامية، ونهج في سبيل تحقيقه أسلوباً تدرجياً يراعي فيه الأولويات، ويتمثل في:

- بناء دولة إسلامية نموذجية في بلد إسلامي مهيأ لذلك، دولة مستقلة تلتزم بالقرآن والسنة، ونظام الشورى، والمبادئ الدستورية،[2] وإذا لم تكن التجربة في مصر ناجحة بالقدر الذي يرغب فيه الأفغاني، فقد استمر في محاولاته لبناء الدولة الإسلامية النموذجية، في بلاد الإسلام التي لم تخضع بعد للاستعمار،[3] فكانت خطوته الموالية.
- نبذ الخصومات بين الشيعة والسنة، ليؤلف بين سلطتين قويتين في العالم الإسلامي آنذاك، هما: إيران، والدولة العثمانية.[4]

= ولمعرفة المزيد عن هذه الرحلات انظر:

- المخزومي، محمد باشا. **خاطرات جمال الدين الأفغاني**، بيروت: دار الفكر الحديث، ط٢، ١٩٦٥م، ص١٠ وما بعدها.

(١) البهي، محمد. **الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي**، القاهرة: دار المعارف، ط١٠، ١٩٩١م، ص٧٨ - ٧٩.

(٢) عبده، **الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية**، مرجع سابق، ص١٢١ وما بعدها.

(٣) ومن خبث الإنجليز أنهم عرضوا عليه عرش السودان ليكف عن مشروعه الإصلاحي فرفض بإباء.

(٤) الأفغاني، جمال الدين. وعبده، محمد. **العروة الوثقى والثورة التحريرية الكبرى**، تحقيق: صلاح الدين البستاني، القاهرة: دار العرب، ط٣، ١٩٩٣م، ص١٣٩.

- الحد من أثر التقليد والتعصب الأعمى للمذاهب.[1] وساعده على التعامل بكفاءة مع كل الطوائف عدم التزامه بمذهب معين، مما حيَّر من درسوا حياته في تصنيفه.[2]

ومما استعان به، لتحقيق هذه الأهداف:

- التنظيم السري الذي أقامه بباريس باسم "تنظيم العروة الوثقى"[3] وله خلايا في كل من مصر والهند، ومجلة العروة الوثقى، لسانه المعبر عن آمال الأمة وطموحاتها.
- دروسه المؤثرة والملهبة للمشاعر والأحاسيس، فكلها نقد لواقع الأمة، وتحريض على المطالبة بالحقوق، وعدّ ذلك نوعاً من الجهاد.[4]

أمّا آماله ومقاصده؛ فيمكن حصرها في إنهاض الدول الإسلامية من ضعفها وإيقاظها من نومها، وتبصير شعوبها بحقوقها، وبما يفعل بها ويدبر لها، لرفع نير الأجنبي عنها، وتحديد مركز الحاكم والمحكوم فيها، لمحاربة الاستبداد الداخلي، وإيقاظ الشعور الوطني لديها، وإثارة الرغبة في الحصول على نظم حرة ودستورية.

توفي الأفغاني ولم يترك رَحِمَهُ ٱللَّهُ مؤلفات كثيرة، لانشغاله بالنشاط السياسي أكثر، ولكثرة تنقلاته ورحلاته التي لم تمنحه الوقت للجلوس للكتابة.[5]

---

(١) عمارة، **أزمة الفكر الإسلامي الحديث**، مرجع سابق، ص٣٧ - ٤٤.

(٢) كمحمد عمارة في كتابيه: "الأعمال الكاملة للأفغاني"، و"جمال الدين الأفغاني: موقظ الشرق وفيلسوف الإسلام".

(٣) تنظر التفاصيل عنه في:

- عمارة، **أزمة الفكر الإسلامي الحديث**، مرجع سابق، ٢٥٤-٢٦٢.

(٤) انظر:

- المخزومي، **خاطرات جمال الدين الأفغاني**، مرجع سابق، ص٩٥-٩٦.

(٥) إلا إذا استثنينا: رسالة الرد على الدهريين، البابية، العروة الوثقى، تتمة البيان في تاريخ الأفغان، وهي ما طبع له لحدِّ الآن.

- **محمد عبده (١٨٤٨ - ١٩٠٥م):**[١]

وهو الساعد الأيمن للأفغاني، تشبع بفكره، وأعجب بآرائه ونافح عنها، فهو الذي يصوغ بأسلوبه مضامين الجريدة، ويشحنها من بلاغته وحرارة تعبيره. فهو إلى جانب الشيخ درويش من أبرز شيوخ عبده الذين لهم تأثير في حياته، فالشيخ درويش رسخ فيه حب العلم خصوصاً التفسير والتصوف، بينما الأفغاني عمَّق فيه، إلى جانب العلم والأدب، الحكمة وحب الإصلاح،[٢] فقلما يفوته مجلس من مجالس حكيم الشرق.[٣]

احتفظ بالمبادئ نفسها التي أسس عليها الأفغاني إصلاحه، وتتمثل في: تربية الشعب لفهم الحياة، وتربية الحكام لتوجيه الشعب، وجعل الأساس المشترك في التربية هو الإسلام.[٤]

وهو إمام في الدين وإمام في الدنيا، زانته الحكمة، وصقلته الثقافة، وحنَّكته التجارب، دون أن تفقده حدة الذهن وتأجج العاطفة وعزمة الشباب، عرف كيف يجمع بين القديم والحديث، ويؤلِّف بين العلم والدين.

ويمكن تلخيص رسالة حياته في أمرين؛ الأول: الدعوة إلى تحرير الفكر من التقليد، والثاني: التمييز بين ما للحكومة من حق الطاعة على الشعب، وما للشعب

---

(١) للوقوف على ترجمته مفصلة ينظر:

- رضا، محمد رشيد. **تاريخ الأستاذ الإمام**، القاهرة: مطبعة المنار، ١٩٣١م، ج١، ص٢٠ فما بعدها.

- أمين، أحمد. **زعماء الإصلاح في العصر الحديث**، بيروت: دار الكتاب العربي، (د. ت.)، ص٢٩٢ فما بعدها.

(٢) الزيات، أحمد حسن. **تاريخ الأدب العربي**، بيروت: دار المعرفة، ٢٠٠٥م، ص٣٢٨.

(٣) لقب أطلق على السيد جمال الدين الأفغاني، والشيخ رشيد يصفه بـ"حكيم الإسلام"، و"مجدد الإسلام" في عصره؛ لدعوته الأمة إلى الوحدة، والرجوع عما ابتليت به من الفرقة، مؤازراً بالأستاذ الإمام، كما اعتبر محمد بن عبد الوهاب قبلهما مجدداً أيضاً؛ لقضائه على البدع وعبادة غير الله في نجد. انظر:

- رضا، **تفسير المنار**، مرجع سابق، ج٥، ص١٧٧وج٨، ص٢٢٨ وج٨، ص٣٦٩.

(٤) وللوقوف على ما يميزه عنه ينظر:

- عمارة، محمد. **الإمام محمد عبده مجدد الدنيا بتجديد الدين**، بيروت: دار الشروق، ١٩٨٧م، ص١٨٩ - ١٨٧.

من حق العدالة على الحكومة، فقد عاش حياته لقضية الإصلاح، إصلاح العقيدة والأخلاق والعقلية، وحظي هذا الجانب من التربية الإنسانية بكل اهتمامه في حياته الخصبة النافعة، يكافح العادات والتقاليد السيئة، وينقد البدع والمعتقدات الفاسدة، ويحمل على الظلم والاستبداد، ويندد بجميع الانحرافات الاجتماعية والسياسية حتى وافاه الأجل.[١]

- محمد رشيد رضا (١٨٦٥-١٩٣٥):[٢]

كان له شوق للقاء الأفغاني، وسأله إن كان يقبله مريداً يتلقف الحكمة منه، وتلميذاً يقوم ببعض الخدمة،[٣] ولم تسعفه الظروف في ذلك، فاستعاض عنه بجريدته "العروة الوثقى" التي أذكت فيه الحماس للإصلاح والتغيير، وغيَّرت مجرى حياته، وهزته هزاً،[٤] وقد أعاد نشر كثير من مقالاتها في المنار تحت عنوان "المقالات الجمالية"،[٥] وانتقل بفضلها إلى طريق جديد في فهم الدين الإسلامي،

---

(١) وترك رَحِمَهُ ٱللَّهُ عدة مؤلفات، أذكر منها: رسالة التوحيد، الإسلام والنصرانية، العلم والمدنية، الإسلام والرد على منتقديه، الرد على هانوتو، تفسير جزء عم، تفسير سورة العصر، تفسير الفاتحة، المنشآت، رسالة الواردات في الفلسفة والتصوف، شرح نهج البلاغة، شرح مقامات الهمذاني، حاشية على شرح الدواني للعقائد العضدية. فضلاً عن تلاميذ كثر نشروا فكره وأكملوا مشواره.

(٢) للوقوف على جوانب من ترجمته يراجع:

- رضا، محمد رشيد. **مجلة المنار**، القاهرة: دار المنار، ١٩٧٢م، مج١٣، ص١٣٢ ومج ١٥ ص٧٨.
- أرسلان، شكيب. **السيد رشيد رضا وإخاء أربعين سنة**، دمشق: مطبعة ابن زيدون، ١٩٣٧م.
- الشوابكة، أحمد فهد، **محمد رشيد رضا ودوره في الحياة الفكرية والسياسية**، عمان: دار عمار، ط١، ١٩٨٩م.
- الشرباصي، أحمد عبده. **رشيد رضا صاحب المنار**، القاهرة: المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، ١٩٧٠م.
- العدوي، إبراهيم أحمد. **رشيد رضا؛ الإمام المجاهد**، تعليق: أحمد بنسنة، القاهرة: المؤسسة االمصرية العامة، سلسلة أعلام العرب، العدد (١)، السنة٩، ١٩٦٤م.

(٣) رضا، **تاريخ الأستاذ الإمام**، مرجع سابق، ج١، ص٨٧.

(٤) المرجع السابق، ج١، ص٣٠٣. وانظر أيضاً:

- الجندي، أنور. **تاريخ الصحافة الإسلامية**، القاهرة: دار الأنصار، ١٩٨٣م، ج١، ٢٥ - ٢٨.

(٥) الشوابكة، **محمد رشيد رضا ودوره في الحياة الفكرية والسياسية**، مرجع سابق، ص٢١.

وهو أنه ليس روحانياً فقط، بل هو دين روحاني جسماني أخروي دنيوي، من مقاصده هداية الإنسان إلى السيادة في الأرض بالحق، ليكون خليفة الله في تقرير المحبة والعدل.[١]

ومن العوامل التي أسهمت في تكوينه:

- البيئة التي ظهر فيها: وتتمثل في أسرته العريقة في المجد، نسباً وحسباً وعلماً، وفي القلمون -بلدته- وطرابلس الشام، حيث المحافظة على شعائر الإسلام، والبعد عن انتشار الفواحش.[٢]
- ظروف المجتمع العربي الإسلامي المتأزمة والمزرية، خصوصاً منها السياسية والدينية.[٣]
- استعداده الشخصي: فعنده من المواهب والاستعداد الفطري ما ليس عند غيره، لا يقبل ما يتلقاه إلا عن فهم واقتناع. وفي كتبه وقائع تشهد له بسرعة البديهة، وقوة الذاكرة، مع ذكاء خارق، وهو ما تؤكده شهادات شيوخه في حقه.[٤]
- جريدة "العروة الوثقى" التي أكد أن مسلكها في الدعوة إلى الإصلاح قد فتح له في فهم القرآن باباً "لم يأخذ بحلقته أحد من المفسرين المتقدمين،"[٥]

---

(١) رضا، **تاريخ الأستاذ الإمام**، مرجع سابق، ج١، ص٨٤.

(٢) ذكر ذلك في:

- رضا، **مجلة المنار**، مرجع سابق، مج ٢٢، ص١٥٥.

(٣) العدوي، **رشيد رضا؛ الإمام المجاهد**، مرجع سابق، ص٣ - ٥.

(٤) فمما قاله عنه حسين الجسر: "إن فلاناً -ويعنيه- جاءني لطلب العلم، فساوى في السنة الأولى أذكياء الطلبة الذين كانوا في السنة السابعة". انظر:

- رضا، محمد رشيد. **المنار والأزهر**، القاهرة: دار المنار، ١٩٣٤م، ص١٤٤.

- الشرباصي، **رشيد رضا صاحب المنار**، مرجع سابق، ص١١٨.

(٥) رضا، **تفسير المنار**، مرجع سابق، ج١٠، ص٤١.

ومما أفاده منها:

• التوجه إلى الإصلاح الإسلامي العام،[1] حتى صار هاجسه المستولي على كيانه، والهدف الذي يسعى من أجله متمثلاً قوله تعالى: ﴿إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ ﴿٨٨﴾﴾ [هود: ٨٨]،[2] وقد أنفق خمسة وثلاثين عاماً من عمره في الإصلاح الإسلامي العام، وإصلاح الأزهر خاصة.[3]

• إيلاء العناية القصوى لسنن الله في الأمم، وتطبيقها على المسلمين.

- وفي النشاط السياسي كانت له مشاركة فعالة، سواء في العلاقة بالمستعمر، داخل مصر وخارجها، أو بالسلطة العثمانية، أو بالصهيونية الساعية إلى الاستيلاء على فلسطين.[4] ولم يقتصر جهده على قضايا المسلمين، بل تعداه إلى قضايا المستضعفين في الأرض، في جميع القارات.

وهو من المتحمسين لفكرة الجامعة الإسلامية التي نادى بها الأفغاني، إلى جانب رفيقه في درب الإصلاح السياسي، عبد الرحمن الكواكبي، وقد انخرط بشكل فعال في النشاط السياسي، وعبأ له كل الوسائل المتاحة، وإن حاول في الوقت ذاته أن لا يبخس الإصلاح الديني والتربوي حقه، فكانت حياته كلها جهاداً وعملاً دؤوباً.

ولارتكاب أخف الضررين أسس رضا جمعية: "الجامعة العربية" وهي سرية، قومية الأساس، وإسلامية التوجه، تضم أمراء الجزيرة العربية، والهدف منها هو

---

(١) العدوي، **رشيد رضا؛ الإمام المجاهد**، مرجع سابق، ص٧٧.

(٢) رضا، محمد رشيد. "العرب والترك: واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا"، **مجلة المنار**، مرجع سابق، مج١٢، ج١٢، ص٩١٣ وما بعدها.

(٣) رضا، **المنار والأزهر**، مرجع سابق، ص٢.

(٤) حيث كتب في هذا مقالات كثيرة حول هذه القضايا، سواء في المنار التي لا يخلو منها عدد، أو في مجلات وصحف أخرى، كما شارك في مؤتمرات عالمية كالمؤتمر السوري الفلسطيني في جنيف ١٩٢١م الذي اختير فيه نائباً للرئيس.

تفادي الدخول الأجنبي للمنطقة، بإنشاء تحالف عسكري فيما بينهم.[١]

وأمّا الاحتلال البريطاني، فقد تحمس محمد رشيد رضا لسياسة المقاطعة والعصيان المدني، التي اتبعها غاندي في الهند، واعتبرها الوسيلة الناجعة لشعوب المنطقة العربية ولإسلامية المستعمرة، أو المهددة بالاستعمار.[٢]

ومن تتبع نشاطه وقارنه بنشاط الأفغاني يلاحظ أوجه شبه عديدة بينهما، وبين مجلتيهما: العروة الوثقىٰ والمنار،[٣] سواء في الأهداف أو الوسائل، وحتىٰ النتائج.

توفي رَحِمَهُ ٱللَّهُ يوم الخميس ٢٣ جمادىٰ الأولىٰ ١٣٥٤هـ الموافق ٢٢ غشت ١٩٣٥م، عن عمر يناهز سبعين عاماً، وكان آخر عهده بالدنيا قراءة القرآن، ودفن بجوار أستاذه عبده.[٤]

وقد ترك رَحِمَهُ ٱللَّهُ مؤلفات متنوعة قيمة، وتلاميذ كثراً حملوا مشعل الإصلاح بعده.[٥]

---

(١) الشوابكة، **محمد رشيد رضا ودوره في الحياة الفكرية والسياسية**، مرجع سابق، ص٢٥١ - ٢٦١.

(٢) رضا، **تفسير المنار**، مرجع سابق، ج٨، ص٢٣١.

(٣) سالم، أحمد علي. "الإصلاح السياسي من الأفغاني إلىٰ رشيد رضا" **مجلة إسلامية المعرفة**، العدد (٢٥)، (١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م)، ص٦٤ - ٦٧ وص٧٠.

(٤) العدوي، **رشيد رضا؛ الإمام المجاهد**، مرجع سابق، ص٢٨١ - ٢٨٣. وانظر أيضاً:
- الشرباصي، **رشيد رضا صاحب المنار**، مرجع سابق، ص٢٢٣.

(٥) من هذه المؤلفات: لحكمة الشرعية في محاكمة القادرية والرفاعية، وهو من باكورة تآليفه، وتاريخ الأستاذ الإمام، وتفسير المنار، وتفسير الفاتحة وست سور من خواتيم القرآن، ومجلة المنار، ونداء للجنس اللطيف، والوحي المحمدي، والمنار والأزهر، وذكرىٰ المولد النبوي، والوحدة الإسلامية، ويسر الإسلام، والخلافة أو الإمامة العظمىٰ، والوهابيون والحجاز، والسنة والشيعة أو الوهابية والرافضة، ومناسك الحج، والربا والمعاملات في الإسلام، ومساواة الرجل بالمرأة، ورسالة في أبي حامد الغزالي، والمقصورة الرشيدية، وشبهات النصارىٰ وحجج الإسلام، وخلاصة السيرة المحمدية، وتعليق علىٰ "إنجيل برنابا"، وتعليق علىٰ "التوسل والوسيلة لابن تيمية"، والمسلمون والقبط، وعقيدة الصلب والفداء، ومحاورات المصلح والمقلد، والفتاوىٰ، وترجمة القرآن وما فيها من المفاسد، وذكرىٰ المولد النبوي، وتعليق علىٰ "أسرار البلاغة للجرجاني"، وتعليق علىٰ "محاضرات طبية إسلامية". وكتب أخرىٰ لم تتح له الفرصة لإخراجها، وقد جمع موادها، ونشرها في المنار. هذا فضلاً عن عشرات المقالات والرسائل، إن لم أقل المئات، دبجتها يراعه في أكثر من غرض وموضوع. =

ب- أبرز إنتاجات مدرسة المنار:

يتميز علماء المدرسة بغزارة الإنتاج في فنون المعرفة جميعها، إلا أنني أكتفي هنا بما له إشعاع وتأثير في العالمين العربي والإسلامي، وفي العالم أجمع؛ إذ ترجم أغلبه إلى عدة لغات.

- الرد على الدهريين: وهو لجمال الدين الأفغاني، وفيه رد على المذهب الطبيعي الذي ظهر في الهند، ويتضمن هذا الكتاب ثلاثة أمور: بيان ضرورة الدين للمجتمع، وبيان خطر انتشار المذهب الطبيعي على المجتمع، ومزية الإسلام بوصفه عقيدة، وديناً على الأديان الأخرى.
- مجلة "العروة الوثقى": التي تصدر بباريس، وغرضها صون الشعوب الشرقية من عدوان الدول الغربية، وتخليصها من الاحتلال البريطاني خصوصاً، وإقلاق بال الحكومة الإنجليزية، حتى ترجع عن أعمالها المثيرة لخواطر العرب والمسلمين، فضلاً عن ضم الصفوف وتوحيد الغاية.
- رسالة التوحيد: لمحمد عبده: غرضه منها تبيان تفوق الإسلام وكماله، فقد خصص الفصول الأربعة الأخيرة فيها لدراسة الإسلام، بوصفه عاملاً أخلاقياً واجتماعياً، ودراسة تطوره التاريخي.
- مجلة المنار: وهي مجلة تبحث في فلسفة الدين وشؤون الاجتماع والعمران، وقد وصفها شكيب أرسلان بأنها "أحسن مجلة ظهرت في باب الإصلاح الديني، وتطهير الإسلام من شوائب البدع، وإعادة سيرته الأولى في عهد السلف."[1] وتكمن أهميتها في أنها تضمنت كل كتب السيد رشيد تقريباً، ينشرها فيها على شكل مقالات، قبل أن تطبع مكتملة.
- تفسير المنار: وهو موضوع هذا الكتاب.

= ومن تلاميذه: محمد حامد الفقي، ويوسف ياسين، ومحمد فؤاد عبد الباقي، ومحمد عبد الرزاق حمزة، وأحمد محمود شاكر، فضلاً عن كل من قرأ المنار، أو درس بمعهد الدعوة ممن يفتخرون بالانتساب إليه.

(١) أرسلان، **السيد رشيد رضا وإخاء أربعين سنة**، مرجع سابق، ص١٦.